العثيمين مؤرخ أصيل وأستاذ جيل

بقلم: د. عبدالعزيز بن صالح الهلابي*

هذه كلمة شاركت بها في جلسة تأبين في "مجلس حمد الجاسر"[1] خصصت لأخينا وحبيبنا عبدالله بن صالح العثيمين الذي انتقل إلى جوار ربه يوم الثلاثاء ١٢ رجب ١٤٣٧هـ (١٩/٤/٢٠١٦م) رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه فسيح الجنان، والغفران والرحمة لصاحب هذه الدار شيخنا حمد الجاسر.

نلتقي في هذا الصباح المبارك لنتذاكر شيئًا من مآثر فقيدنا الغالي عملاً بقول الرسول ﷺ: "اذكروا محاسنَ موتاكم"، ويشرفني أن أشارك على هذه المنصّة علَمَين عالِمَين تميزا بخصال كثيرة أهمها النبل والوفاء هما مدير هذا اللقاء الدكتور عبدالرحمن الشبيلي وزميلي الدكتور محمد الهدلق.

سأبدأ بذكر طرف من العلاقة بيني وبين عبدالله العثيمين، رحمه الله. تشرفت بمزاملة الدكتور عبدالله أثناء ابتعاثنا لبريطانيا، فكلانا كنّا ندرس بجامعتين في مدينتين باسكتلندا هما إدنبرا وسينت أندروس، ويفصل بينهما قرابة المئة كيل. وبما أنّ إدنبرا هي عاصمة اسكتلندا مدينة كبيرة

وجميلة ونحن في مدينة سانت أندروز الصغيرة فكنّا كثيرًا ما نحلّ ضيوفًا عليه وعلى زملائه بإجازات الأسبوع ونسعد بصحبتهم الجميلة والتي نستمتع بذكرياتها الطيبة التي لا تنسى. ثم تشرفت بمزاملته بقسم التاريخ بجامعة الملك سعود بعد ذلك لمدة ناهزت الثلاثين عامًا فأفدت -كما أفاد غيري من زملائي- ولكني أظن أني حظيت بقدر طيّب من علمه الجمّ وحكمته وسداد رأيه وسعة أفقه وحِلمه وسماحته وطيب معشره؛ لأني لازمته وخالطته أكثر من غيري. فالمرء يتشوّق إلى جلسته لما فيها من ظُرف وتشويق وحسن حديث فإن تحدّث في التاريخ فهو المبرز فيه، وإن تحدّث في الشأن العامّ فهو المهموم به العارف لأبعاده، وإن تحدّث في شؤون الأمّة فهو المستوعب المتابع لأحوالها، وإن كان حديث ظُرف فهو يتجلّى مرحًا وأنسًا ودعابة.

عبدالله العثيمين تولى منذ تعيينه أستاذًا بالجامعة، بعد إنجازه رسالته للدكتوراه بجامعة إدنبرة، تدريس تاريخ المملكة العربية السعودية بقسم التاريخ مع زميلنا طيّب الذّكر الأستاذ الدكتور محمد بن سعيد الشعفي، أمدّه الله بالصحة، ثم تولى رئاسة قسم التاريخ، ونظرًا لتميّزه فقد تم اختياره عضوًا بالمجلس العلمي بالجامعة لعدد من السنوات.

شارك في وضع المناهج والخطط الدراسية في القسم والكلية، كما أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه، وباختصار **فهو أستاذ جيل.**

رغم أنّ الدكتور عبدالله العثيمين كان، بحكم خبرته وعلمه وسداد رأيه، مرجعًا لكثير من المؤسسات العلمية والجهات المعنية بإدارة المجتمع يستشيرونه في أمور كثيرة أو يطلبون منه تقديم دراسات عنها، إلا أنّ كل ذلك لم يحل دون كونه باحثًا نشيطًا دؤوبًا أثمر إنتاجًا علميًّا يتصف بالغزارة والعمق. والحجر الأساس في بنائه البحثي يتمثّل في رسالته للدكتوراه، وعنوانها: "**الشيخ محمد بن عبدالوهاب- حياته وفكره**"[٢]. إنّ اختيار مثل هذا الموضوع لدراسته في جامعة أدنبره على يدي ألمع المستشرقين في عصره مونتجمري وات (Montgomery Watt (d.٢٠٠٦ يدل على شجاعة إن لم نقل على تهوّر. لماذا؟ لأنّ الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمه الله، كتب عنه أنصاره عشرات الكتب وكتب عنه خصومه ربما أكثر مما كتب عنه أنصاره على المستوى المحلي والإقليمي والعالم الإسلامي، كما كتب عنه الكثير من المستشرقين بلغاتهم المختلفة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، من يكتب عن الشيخ محمد ابن عبدالوهاب لا بد أن يدرس ويستوعب كتبه في العقيدة (التوحيد) والفقه ومراسلاته وفتاواه، بل عليه أن يدرس كتب أسلافه من العلماء سواء القريبين زمنًا منه أم البعيدين زمنًا مثل ابن تيمية، ليلحظ مدى التواصل الفكري والعلمي بينه وبينهم، وهل كان يتسق معهم في كل الأحوال أم كان يفارقهم في بعض الأحيان. وكان عليه أن يدرس أوضاع مجتمع المنطقة التي نشأ فيها الشيخ محمد بكل أبعاده ليفهم تأثيرها على تكوين الشيخ العلمي والاجتماعي وعلى مواقف أمراء البلدان، وطلاب

العلم فيها والعامة من دعوة الشيخ. ويدرس الناحية العملية لدعوة الشيخ، بجانب ما أودعه مؤلفاته نظريًّا، وذلك من خلال الأساليب التي سلكتها الدولة السعودية الأولى إمّا بمباشرة أو بتوجيه من الشيخ في حياته. إنّ كلَّ ذلك حِملٌ ثقيلٌ على طالب تاريخ ولكن عبدالله العثيمين لم يكن هيّابًا ولا متقاعسًا، ونجح في كتابة رسالة متميّزة وفق منهج علمي نقدي صارم.

وبعد نشره لرسالته في كتاب أتم ذلك بنشره دراسته لبعض مصادرها وخاصة تاريخ حسين بن غنام (ت ١٢٢٥هـ) أول مؤرخ للدولة السعودية، وكتابات الرحالة المعاصرين لها أو القريبين نسبيًّا من عصرها ثم كتابات المستشرقين، وحملت عنوان: "مراجعات في مصادر التاريخ السعودي"[٣].

ومن خلال تتبّع العثيمين ورصده لتاريخ نجد أثمر ذلك كتيبًا صغير الحجم كبير الفائدة عنوانه: "**نجد قبيل ظهور الشيخ محمد بن عبدالوهاب**"[٤].

عبدالله العثيمين ليس باحثًا فحسب بل هو صاحب رسالة، لا يكتب أبحاثًا للنخبة الأكاديمية بل غايته أن يتواصل مع طلاب العلم والناس على مختلف مستوياتهم وأن يُقرِّب ما يكتب إلى القارئ حسب مستواه، فقد كتب لطلاب المرحلة الابتدائية ولطلاب المرحلة الثانوية راعى فيها مستوياتهم فقرّب إليهم المعلومة التاريخية بأسلوب سلس شيّق محبب، وانتقل بعد ذلك للكتابة للطالب الجامعي ولأيّ قارئ متوسط الثقافة فألّف كتابًا من جزأين عنوانه: "**تاريخ المملكة العربية السعودية**"[٥] خصص

الجزء الأول لتاريخ الدولتين السعودية الأولى والثانية، والجزء الثاني: تاريخ المملكة العربية السعودية، بدءًا من تأسيسها وحتى وفاة الملك عبدالعزيز، رحمه الله، ودرسها من حيث التأسيس والتوحيد والتطور في جميع المجالات. ولا أدل على نجاحه في رسالته أنّ كتابه عن تاريخ الدولة السعودية طبع ستَّ عشرة طبعة، ولا أظن كتابًا بالمملكة العربية السعودية حظي بمثل تكرار هذه الطبعات.

وللتاريخ العسكري نصيب طيّب من أبحاث المؤرخ العثيمين، فقد كتب دراسة قيّمة عنوانها: "في التاريخ العسكري للدولتين السعوديتين الأولى والثانية"، على أنه خص "معارك الملك عبدالعزيز المشهورة لتوحيد البلاد"[٦] بكتاب أبدع فيه من جميع النواحي، وتتبّع تسلسل إنجازات الملك عبدالعزيز، رحمه الله، العسكرية منذ أولى معاركه التي استولى فيها على الرياض سنة ١٣١٩هـ وحتى آخر حروبه التي كانت على جبهة اليمن ما بين سنتي ١٣٥٢-١٣٥٣هـ من حيث التخطيط الاستراتيجي والتكتيك الحربي واختياره التوقيت والمكان وسياساته في اختيار القادة وفي استقطاب المحاربين ورعايتهم، وشهامته ومروءته في إكرام خصومه المهزومين قادةً وأفرادًا، وتألُّفِه لهم بحيث يتحوّلون إلى أشد الناس حبًّا وإخلاصًا له، كل ذلك انعكس في هذا الكتاب مادةً وأسلوبًا وعرضًا ومنهجًا، وزوده بخرائط ملوّنة ودقيقة لكل معركة. وخفّف فيه كثيرًا من جفاف المنهج الأكاديمي بحيث أصبحت قراءته سلسة وشيّقة.

وامتدادًا لدراساته تلك توسّع من الناحية الجغرافية والموضوعية فألّف كتابًا عن "نشأة إمارة آل رشيد"[٧] والتي أصل نشأتها تعود لتعيين الإمام فيصل بن تركي أحد قواده عبدالله بن علي بن رشيد أميرًا على جبل شمّر أواخر سنة ١٢٥٠هـ والذي أخذت سلطته تنمو حتى صارت الإمارة لاحقًا مستقلة ثم منافسة للدولة السعودية، ومرّت إمارة آل رشيد بفترات صعود وهبوط حتى صارت نهايتها على يدي الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود بدخول حايل ضمن منظومة المملكة العربية السعودية سنة ١٣٤٠هـ.

دراسة الدكتور عبدالله العثيمين هذه تعدّ رائدة من حيث منهجُه ومصادرُه وتحليلاتُه، فقد اعتمد على الروايات الشفهية لكثير من الرواة ذوي العلاقة المباشرة أو القريبة من الأحداث كما وظّف نصوصَ الشِّعر الشعبي بصفتها وثيقةً تاريخية، وهو أول من قام بذلك، فيما أعلم، بحيث أثرَتْ بحثَه. أمّا تحليلاتُه فتتّصف بالعمق وفهم خلفيات الأحداث وبيئاتِها ومسبباتِها وتحرِّيه الحقيقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، ولا غرو في ذلك فقد حصل هذا الكتاب على جائزة مجلس التعاون لدول الخليج العربية في أولى دوراتها كأفضل كتاب أُلّف في دول الخليج في العلوم الاجتماعية (في حقل التاريخ) عند صدوره.

لم يتوقّف العثيمين عند هذا الكتاب وإنما أخذ يتابع ما ينشر من أبحاث عن نفس الموضوع سواء كانت دراسات شاملة عن إمارة آل رشيد أو تناولت جانبًا منها، وكان أهمها ثلاثة كتب، كتب عنها العثيمين دراسات

نقدية اتسمت بالثراء والموضوعية وشكلت هذه الدراسات الثلاث كتابًا بعنوان: " **قراءة في دراسات عن إمارة آل رشيد**"(٨).

كان العثيمين مهذبًا ، متواضعًا في نقده فلا يظهر استعلاء على من ينتقد أو تسفيهًا له، أو تضخيمًا لما في العمل المنقود من قصور أو أخطاء، أنقل مثالاً واحدًا. ففي نقده لكتاب الدكتور محمد الثنيان: "**عبدالعزيز بن رشيد والحماية البريطانية**"، ص١٣٧ يقول: "ودراسة أخي وزميلي الدكتور محمد الثنيان، جديدة في استقصاء تفاصيل موضوعها، جيّدة في توثيقها، حسنة في أسلوبها، وكل هذه الصفات ليست غريبة على كتابة باحث مثله، وهي ما تجعل لما يكتبه قيمة واضحة لدى المهتمين بالدراسات التاريخية الحديثة عن هذا البلاد.

وما سأقوم به في هذه القراءة لكتابه مزيج بين إثارة التساؤلات إضافة إلى التساؤلات التي أثارها في دراسته، وإبداء وجهة نظر قابلة للنقاش، وإعطاء معلومات إضافية قد تزيد من إيضاح بعض المسائل". لكنه لا يداهن ولا يجامل في نقده من قول ما يراه الحق ولكن بأسلوب مهذب.

العثيمين المحقق:

لم يكن عبدالله العثمين باحثًا في التاريخ فحسب بل محققًا يمتلك كل أدوات التحقيق من حيث منهج التحقيق النقدي، وتمكّنه من اللغة العربية تمكنًا يتفوّق فيه على كثير من أصحاب الاختصاص، وقدرته على قراءة الخطوط القديمة فيجمع نُسَخَ مخطوط الكتاب الذي يشتغل على تحقيقه ويقرأ نصوصه بعناية وأناة، سعيًا منه ليخرج النص كما كتبه مؤلفه. وهو

انتقائي في تحقيقاته، فالأصل عنده أن يكون الكتاب الذي يقدم على تحقيقه ذا قيمة علمية تضيف إلى موضوعه إضافات هامة. وسوف أكتفي بالإشارة إلى عنوانات تحقيقاته وأولها كتاب "**كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب**"(٩)، والثاني كتاب "**نبذة تاريخية عن نجد**"(١٠) أملاها ضاري بن فهيد الرشيد، وكان أول من حققه أستاذ الجميع حمد الجاسر، رحمه الله(١١)، ولكن العثيمين حققه على المخطوط وأضاف إليه تعليقات وشروحات، والثالث "**لَمْع الشهاب في سيرة محمد بن عبدالوهاب**"(١٢)، وقد سبق نشر هذا الكتاب مرتين، مرة في خارج المملكة وأخرى في داخلها، على أنّ الكتاب مجهول المؤلف، ومضمون الكتاب مخالف لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب متحامل عليها، لكن العثيمين قام بتحقيقه تحقيقًا علميًّا ورَدَّ على مؤلفه في ما أخطأ فيه متعمّدًا أو غير متعمّد، وأماط اللثام عن اسم مؤلفه وهو حسن بن جمال بن أحمد الريكي الذي فرغ من تأليفه سنة **١٢٣٣هـ**، وهي السنة التي سقطت فيها الدولة السعودية الأولى على يدي القائد إبراهيم باشا.

العثيمين المترجم:

البعد الثالث في أعمال العثيمين التاريخية هو الترجمة، فلقد ترجم عن اللغة الإنجليزية القسم الخاص بالدولة السعودية الأولى من كتاب الرحالة السويسري يوهان لودفيك بوركهارت "**البدو والوهابيون**" بعنوان "**مواد لتاريخ الوهابيين**"(١٣)، وكان هذا المؤلف من أكثر الرحالة الأوربيين الذين قدموا إلى البلاد العربية دقة وتحرِّيًا للمعلومة الصحيحة. وكونه منذ بداية

القرن التاسع عشر في بلاد الشام ويتتبّع أخبار الدولة السعودية ثم مجيئه إلى الحجاز سنة ١٢٣٠هـ/١٨١٤م جعله شاهدَ عيان على بعض الأحداث وعلى صلة قريبة جدًّا من الأحداث الأخرى بحيث أصبح مصدرًا مهمًّا لتاريخ الدولة السعودية الأولى.

أمّا العمل الثاني الذي ترجمه عن اللغة الإنجليزية كذلك فهو رحلة "**بعثة إلى نجد**" ١٩١٧-١٩١٨م= ١٣٣٦-١٣٣٧هـ[١٤] لسانت جون فيلبي. وقدّم العثيمين لهذه الترجمة بدراسة بلغت ٦٠ صفحة. وتأتي أهمية هذه الرحلة من كونها تقدّم لنا معلومات عن أوضاع المملكة والمنطقة في وقت مبكر نسبيًّا. وفيلبي كان ضابطًا إنجليزيًّا أُرسل من العراق لاستكشاف الأوضاع في المناطق التابعة لابن سعود، لكن لقاءه لابن سعود كان آسرًا لم يستطع الفكاك منه طيلة حياته؛ إذ لم يلبث بعد فترة أن ترك الخدمة في الجيش البريطاني وعاد إلى الرياض واستقر في بلاط ابن سعود مستشارًا ثم اعتنق الإسلام وأصبح من مواطني المملكة العربية وخلّف مؤلفات كثيرة عن رحلاته وما اكتشفه من الآثار بالمملكة وعن الأوضاع بالمملكة بعامة. وللعثيمين ترجمات أخرى في موضوع الخيل وغيرها.

أذكر كلمة موجزة عن عمله أمينًا عامًّا لجائزة الملك فيصل، رحمه الله، بوصفي شاهدًا. لقد أولتني جائزة الملك فيصل مشكورة الثقة في كثير من المناسبات، فكنت محكمًا في أحيان قليلة، وخبيرًا لفحص الأعمال المرشحة في مجال العلوم الإنسانية لعدد من السنوات، وأخيرًا عضوًا في لجنة

الاختيار، وأشهد أنّ عبدالله العثيمين عمل وفق قواعد صارمة وبغاية السرية والأمانة والموضوعية والنزاهة. والأمانة تقتضي ذكر الفضل لأهله، فكثير من تلك المعايير والقواعد التي تسير عليها أمانة الجائزة بكل جهازها كانت من عمل أو إشراف من قام بتأسيس الجائزة وهو معالي أستاذنا أ. د. أحمد بن محمد الضبيب، أمدّه الله بالصحة والتوفيق.

اعتذر عن التقصير بحق أستاذنا الأستاذ الدكتور عبدالله العثيمين، فالمجال المتاح لا يسمح بالتوسع أكثر من ذلك، وأختم بمثل ما بدأت بالترحم عليه وعلى أمواتنا جميعًا.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش:

* أستاذ بقسم التاريخ، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض.

عضو هيئة تحرير مجلة **العرب**.

(١) عقدت هذه الجلسة في يوم السبت الموافق ١٧ رجب ١٤٣٧هـ.

(٢) نشرته لأول مرة: دار العلوم، الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٣) مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٩هـ.

(٤) نشر مكتبة الرشد ناشرون، الرياض، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

(٥) نشر المؤلف، الرياض، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.

(٦) نشره المؤلف، الرياض، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

(٧) نشر المؤلف الطبعة الثانية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

(٨) نشره المؤلف الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

(٩) دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
(١٠) أمانة احتفال مرور مئة عام على تأسيس المملكة، الرياض، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م.
(١١) دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م.
(١٢) دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
(١٣) نشره المؤلف، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.
(١٤) مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.